المحاضرة الثالثة:

اللغة العربية واللغات السامية، اللغة العربية ولهجاتها:

تمهيد:

لقد كان لاكتشاف اللغة السنسكريتية الهندية كبير الأثر في الدفع إلى دراسة اللغات دراسة وصفية وتاريخية مقارنة، من أجل تحديد نقاط الشبه والاتفاق بين اللغات، ومن ثم البحث عن الأصول المشتركة للغات، وتقسيمها إلى فصائل أو أسر لغوية، ومن أجل ذلك ظهرت نظريتان في تقسيم اللغات[1]:

النظرية الأولى: تعتمد على الدراسة الوصفية والتشكيلية، بزعامة العالم الألماني شليجل، إذ قسّم اللغات إلى:

ـ اللغات المتصرفة أو التحليلية: تمتاز بتغير المعاني مع تصرف الكلمات، والاشتقاق اللفظي، واستخدام روابط وأدوات تدل على مختلف العلاقات من حيث تراكيب الجمل، ومن هذه اللغات: اللغات الأوربية واللغات السامية ومنها العربية.

ـ اللغات الوصلية أو اللاصقة: تتغير فيها المعاني بإضافة لواصق أو سوابق إلى الكلمات، ومن أشهر هذه اللغات: اليابانية وبعض اللغات البدائية.

ـ اللغات العازلة: هذه لغات لا تتصرف الكلمات فيها ولا تلحقها الإضافات، ولكن تحمل كل كلمة فيها دلالة خاصة لا تتغير، وليس في هذه اللغات أدوات نحوية، ومنها اللغة الصينية وكثير من لغات الأمم البدائية.

ولم تلق هذه النظرية قبولا عند العلماء، ووجهوا إليها انتقادات أهمها أن هناك لغات تعرف أكثر من قسم من هذه الأقسام الثلاثة، فالعربية مثلا هي لغة تصريفية، وتعتمد أيضا على الإلصاق، كحروف المضارعة، وتعتمد على الوصل وبعض الروابط النحوية.

النظرية الثانية: تعتمد على الروابط والصلات والعلاقات بين الشعوب، من أجل تكوين مجموعات لغوية متقاربة تسمى بالفصائل، وتُعد هذه النظرية الأكثر رواجا بين العلماء، ومنهم العالم الألماني ماكس مولر الذي لاحظ وجود الشبه بين بعض اللغات، والذي يدل على التفرع من أصل واحد.

قسّم مولر اللغات إلى ثلاث مجموعات كبيرة:

---

[1] يُنظر: فقه اللغة، مفهومه، موضوعاته، قضاياه، ص68 وما بعدها.

1 ـ فصيلة اللغات الهندية الأوربية: تنتشر في أوربا وأمريكا وأستراليا وجزء كبير من آسيا، وتضم كثيرا من اللغات البائدة كالسنسكريتية والفارسية القديمة والبهلوية واللغات اليونانية والجرمانية والإغريقية، ومن اللغات الحية التي تدخل في هذه الفصيلة: اللغة الهندية واللغات الأوربية والفارسية والكردية والأفغانية والألبانية والسلافية والاسكندنافية وغيرها.

2 ـ فصيلة اللغات السامية الحامية: تشتمل على مجموعتين: الحامية والسامية، فأما الحامية فتنتسب إلى حام بن نوح عليه السلام وتضم اللغات المصرية القديمة والقبطية واللغات البربرية والحبشية والنوبية، وأما السامية فتنتسب إلى سام بن نوح، وسيأتي الحديث عنها لاحقا.

3 ـ فصيلة اللغات الطورانية: وهذه لغات لا تجمعها رابطة، ولكن جعلها مولر فصيلة واحدة تخلصا من كثرة التقسيمات، وتضم اللغات الصينية واليابانية والتركية والمغولية وغيرها.

ومع ذلك لم يرض هذا التقسيم كثيرا من الباحثين فاعتبروا السامية والحامية فصيلتين مستقلتين، وقسّموا الطورانية إلى تسعة عشر قسما، فوصل مجموع الفصائل إلى اثنتين وعشرين فصيلة.

اللغة العربية واللغات السامية:

تنسب اللغات السامية إلى سام بن نوح عليه السلام، وفقا لما جاء في جدول تقسيم الشعوب الموجود في التوراة، والذي يُرجع شعوب المعمورة كلها إلى ثلاثة من أبناء نوح: سام وحام ويافث، وقد اختار مصطلح اللغات السامية، العالم الألماني شلوتسر.

وتنقسم اللغات السامية إلى قسمين [1]: شرقية وغربية، فأما الشرقية فهي اللغة الأكادية، وتتفرع هذه إلى بابلية وآشورية، وهذه اللغة السامية الشرقية المسماة بالأكادية وصلت إلينا عن طريق النقوش المختلفة، والتي من أهمها النقش الذي دوّن عليه قانون حمورابي، والذي يعد أقدم الشرائع الأرضية، ولا أثر للغة الأكادية اليوم غير هذه النقوش، وموطنها بلاد ما بين النهرين: دجلة والفرات.

وأما اللغة السامية الغربية فتتفرع إلى شمالية وجنوبية، فأما الشمالية فتنقسم إلى لغتين: كنعانية وآرامية، والكنعانية تنقسم إلى كنعانية شمالية وكنعانية جنوبية، الكنعانية الشمالية هي اللغة الأوجاريتية، وأوجاريت هذه مدينة اكتشفت حديثا في سورية شمال اللاذقية، أما الكنعانية الجنوبية فتشمل اللغة العبرية، وأهم نص كتب

[1] يُنظر: فصول في فقه العربية، ص25 وما بعدها.

بها هو التوراة ومزامير داوود وغيرها، كما تشمل اللغة المؤابية نسبة إلى مؤاب في نواحي الأردن، والفينيقية التي وصلت إلينا في عدة نقوش، والفينيقية نسبة إلى الفينيقيين الذين نشروا لغتهم في مستعمراتهم ولا سيما في شمالي إفريقية في نواحي قرطاجنة، وأما اللغة السامية الغربية الشمالية الآرامية فوصلت إلينا أيضا عن طريق النقوش النبطية والتدمرية ونقوش من صحراء سيناء، ومن أهم لهجات الآرامية: السريانية، إذ سمى الآراميون أنفسهم بالسريان بعد اعتناقهم الدين المسيحي، وقد تسبب الفتح الإسلامي في استئصال اللغة الآرامية إلا ما بقي منها في بعض الجهات الجبلية النائية، والتي لا يزال أهلها يتكلمون بها ممزوجة بالكثير من التعبيرات العربية والتركية والكردية وغيرها.

نصل الآن إلى القسم الغربي الجنوبي من قسمي اللغات السامية، ويتفرع هذا القسم إلى لغتين هما: العربية والحبشية، فأما الحبشية فهي لغة الساميين الذين خرجوا من الجزيرة العربية إلى الحبشة واختلطوا بأهلها الحاميين، حيث ظهر هناك ما يسمى باللغة الجعزية وهي قريبة من العربية، واللغة الأمهرية ويغلب عليها العنصر الحامي غلبة شديدة، وأما العربية فتنقسم إلى جنوبية وشمالية: الأولى الجنوبية تعرف بالحميرية وموطنها اليمن وجنوبي الجزيرة، ومن فروعها: السبئية والمعينية، ووصلت إلينا منها الكثير من النقوش الممتدة من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي، والثانية الشمالية هي لغة وسط الجزيرة العربية وشماليها، وتنقسم إلى بائدة وباقية، فأما البائدة فأهم لهجاتها: الثمودية والصفوية واللحيانية، وأما الباقية فهي اللغة العربية الفصحى التي كتب لها الخلود بسبب نزول القرآن الكريم بها.

الخصائص المشتركة في اللغات السامية:

تشترك اللغات السامية في كثير من الخصائص الدالة على وحدة أصلها، نذكر منها[1]:

ـ الاعتماد في الكتابة على الحروف الصامتة دون الحروف الصائتة.

ـ التشابه في تكوين الاسم من حيث النوع والعدد، وفي تكوين الفعل من حيث الزمن، والتجرد والزيادة، والصحة والعلة.

ـ رجوع أغلب الكلمات إلى أصول ثلاثية.

[1] يُنظر: فقه اللغة، حاتم الضامن، ص25.

ـ وجود الأصوات الحلقية أو بعضها: الحاء والعين والغين والخاء والهاء والهمزة، وهي توجد كاملة في العربية.

ـ وجود الأصوات المطبقة وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء.

ـ التشابه في الضمائر وطريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف

ـ التشابه في كثير من المفردات الأساسية المشتركة.

ـ الاشتقاق بتغيير الحركة أو الزيادة في الأحرف أو الإنقاص منها، من غير الالتزام بموضع واحد في هذا التغيير.

اللغة العربية ولهجاتها:

لقد صادف نزول القرآن الكريم على العرب وجود لغة مثالية مصطفاة موحدة، فزاد من شمول تلك الوحدة وتقويتها، إلا أن هذا لا ينفي وجود لهجات عربية مختلفة، منتشرة في أنحاء الجزيرة، راعى القرآن الكريم وجودها، وهو ما يفسر التوسعة في القراءات، والنزول على الأحرف السبعة المشهورة، وكان العرب يعبرون بلهجاتهم الخاصة، ولا يجدون غضاضة في التواصل بها، كل على سجيته وفطرته، لذلك كثرت الروايات واختلفت، كما أجاز اللغويون القدامى الاحتجاج بجميع هذه اللهجات، مع اعتبار الأخذ بالأجود منها[1]، يقول ابن جني في ذلك: «إلا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطئا لأجود اللغتين»[2].

واللهجة هي: «الصفات أو الخصائص التي تتميز بها بيئة ما في طريقة أداء اللغة أو النطق »[3]، وهذه الخصائص تكون على المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي، واللهجات التي تنتمي إلى لغة مشتركة لا بد وأن تجمعها روابط قوية وصلات متينة، وهي متفرعة عن اللغة الأم المشتركة، وإنما تفرعت لأسباب عدة، منها العامل الجغرافي الذي يباعد بين المتكلمين باللغة، فتسلك كل جماعة منهم مسلكا لغويا خاصا، وتأخذ اللغة في التغير، ومنها العامل السياسي الذي يساعد على دخول ألفاظ جديدة لكل جماعة أو دولة مستقلة في سياستها، ومنها عامل الصراع اللغوي والاحتكاك بالشعوب الأخرى، والذي من شأنه أن يؤدي إلى تغييرات لغوية يفرضها ذلك الصراع أو الاحتكاك[4].

---

[1] يُنظر: دراسات في فقه اللغة، ص59 وما بعدها.
[2] الخصائص، ج02، ص12.
[3] فقه اللغة، مفهومه، موضوعاته، قضاياه، ص91.
[4] يُنظر: المرجع نفسه، ص92 وما بعدها.

لقد كانت اللغة القرشية هي السيدة في لغات العرب، من حيث الفصاحة والبيان، ، ذلك أن قريشا كانت تتخير من لغات العرب أفصحها وأبينها فتستعمله في ألفاظها، ويصبح من لهجتها، ورد في المزهر: «قال الفراء: كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ »[1]، وبالرغم من شيوع لغة قريش الفصيحة، واصطلاح القبائل العربية عليها، ونظم الشعراء قصائدهم على لغة قريش وعزوفهم عن نظم الشعر بلغات قبائلهم، كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها القبائل وظلت واضحة على ألسنة أهلها إلى أن سجلها العلماء في عصر التدوين، وأطلقوا عليها ألقابا تدل على استهجانهم لها، وشعورهم بمخالفتها للغة الأدبية العامة التي نزل بها القرآن، ومن هذه اللهجات[2]:

ـ الاستنطاء: هو جعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء، وتنسب إلى سعد بن بكر وهذيل والأزد، وقيس وقيل إنها لغة أهل اليمن، ومن أمثلتها قولهم أنطى بدلا من أعطى، وقرأ الحسن البصري: (إنا أنطيناك الكوثر)

ـ التلتلة: هي كسر حرف المضارعة، فيقال: إعلم ونِعلم ويِعلم وتِعلم، وتنسب إلى قبيلة بهراء.

ـ الشنشنة: هي جعل الكاف شينا أبدا تنسب إلى بعض أهل اليمن وعامة حضرموت، يقولون مثلا: لبيش أي لبيك، عليش بدلا من عليك.

ـ الطُّمطمانية: هي إبدال لام التعريف ميما، مثل طاب امهواء وصفا امجو، وتنسب هذه إلى طيئ والأزد وقبائل حمير.

ـ العجعجة: هي تحويل الياء جيما، وتنسب إلى قضاعة، قال الراجز: خالي عويف وأبو علجٍّ، المطعمان اللحم بالعشجِّ.

ـ العنعنة: إبدال الهمزة عينا، كقولهم: أشهد عنّك رسول الله، وتنسب إلى تميم.

ـ الفحفحة: قلب الحاء عينا، مثل: اصبر حتى آتيك، يقال: اصبر عتى آتيك، وتنسب إلى هذيل.

---

[1] السيوطي، المزهر في علوم اللغة، المكتبة العصرية، ص221.
[2] يُنظر: فقه اللغة لحاتم الضامن، ص48 وما بعدها.

ـ الكسكسة: قلب كاف المؤنث سينا، يقولون في خطاب المؤنث: أبوس وأمّس، يريدون أبوك وأمك، وتنسب هذه إلى بكر، وقيل إن الكسكسة إضافة السين إلى كاف المخاطبة في الوقف، مثل: مررت بكِسْ، ونزلت عليكِسْ، وتنسب إلى ربيعة.

ـ الكشكشة: قلب كاف المؤنثة شينا، مثل: عليشِ، وبشِ أي عليكِ وبكِ. وقيل هي إضافة الشين إلى كاف المخاطبة، مثل: عليكِشْ، ومنكِشْ، وبكِشْ، وتنسب إلى بني سعد وربيعة ومضر.

ـ اللخلخانية: هي العجمة واللكنة في المنطق، تنسب إلى أعراب الشّحر وعمان، يقولون مثلا: مشا الله كان، يريدون: ما شاء الله كان.

ـ الوتم: هو قلب السين تاء، مثل: النات أي الناس، والأكيات أي الأكياس، وتعزى إلى اليمن.

ـ الوكم: هو كسر الكاف من ضمير المخاطبين المتصل إذا سبق بكسرة أو ياء، يقولون: بكِم، وعليكِم، أي بكُم وعليكُم. وينسب إلى ربيعة وقوم من كلب، وناس من بكر بن وائل.

ـ الوهم: كسر الهاء من ضمير الغائبين المتصل مطلقا، يقولون: منهِم، عنهِم، بينهِم، وينسب الوهم إلى بني كلب.